

تحيّة

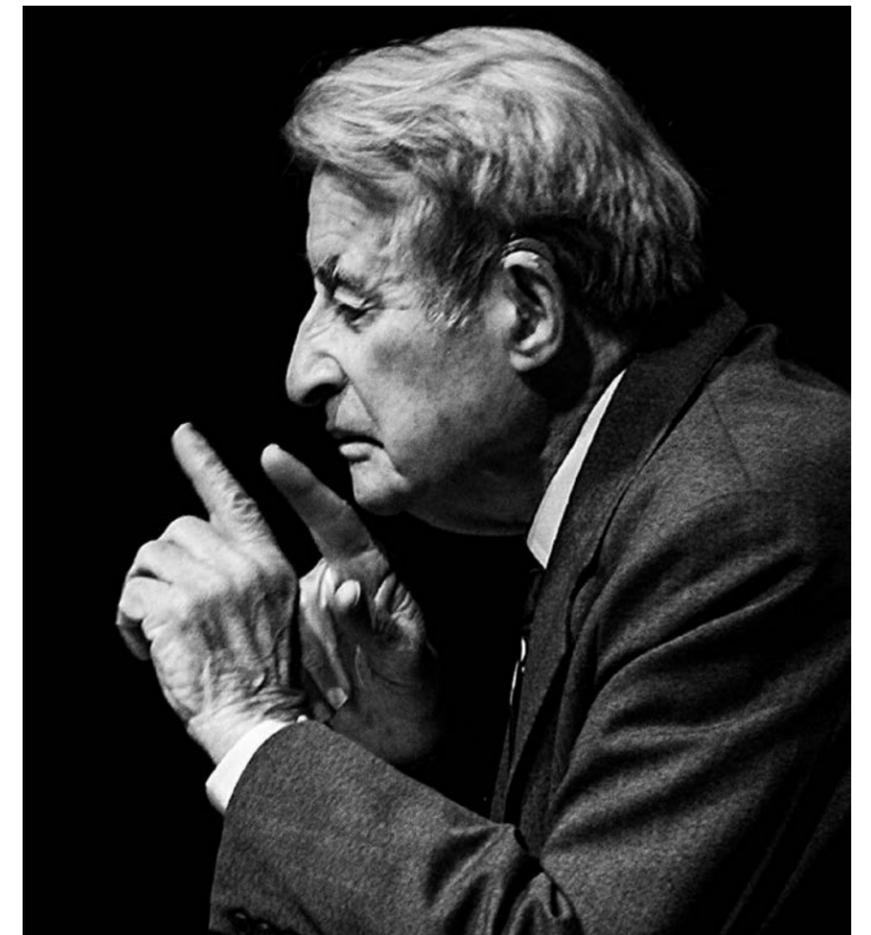
توفيق سكر
مجدّد التراث الشرقي رحل بصمت

غيب الموت الشهر الماضي الموسيقي اللبناني الكبير توفيق سكر (1922 - 2017). ينتمي الراحل الى جيل طبع الموسيقى اللبنانية ورسم ملامحها في مرحلتها التأسيسية غداة الاستقلال والعمل على ارساء مداميك المجتمع هوية (فنية وثقافية) ودولة. نذكر خصوصا الاخوين عاصي (1922 - 1986) ومنصور الرحباني (1925 - 2009)، وزكي ناصيف (1916 - 2004)، وتوفيق الباشا (1924 - 2005) وتوفيق سكر... عُرف هؤلاء باسم "عصبة الخمسة"، تيمنا بـ"عصبة الخمسة" الروسية التي كانت تضم كبار الموسيقيين الروس في نهاية القرن التاسع عشر وفق ما يقول المؤرخ والباحث فيكتور سحاب

بانه اول لبناني يدخل الكونسرفتوار الوطني في باريس عام 1949، وهو الذي وضع مناهج بعض الالات الموسيقية في الكونسرفتوار اللبناني، الى جانب مادة التحليل الموسيقي، بعدما دُرّس فيه منذ عام 1953 ثم اداره من عام 1964 حتى عام 1969. كما شارك في وضع المناهج التعليمية في القسم الشرقي من الكونسرفتوار، وحاول نشر ثقافة الموسيقى في المجتمع من الشمال الى الجنوب عبر حفلات كان يجوب فيها المناطق مجانا مع الفرقة التي اسسها.

لكن الانجاز الذي ظل حتى اليوم الاكثر اشكالية واثارة للجدل، هو وضعه نظاما بوليفونيا (متعدد الاصوات) غربيا للمقامات العربية والشرقية التي تحوي ربع الصوت. هذا ما ادى الى سجال كبير في بيروت السبعينات. سجال دارت رحاه على صفحات الجرائد والمجلات ابرزها مجلة "بيروت المساء" بين مؤرخين وموسيقيين من امثال فيكتور سحاب والمبايسترو عبد الغني شعبان من جهة، وتوفيق سكر ومناصريه من جهة اخرى. يومها، قال القدير شعبان الذي غادر عاملنا باكرا: "من يمد يده الى ربع الصوت سنكرها". كان ذلك ردا على اقتراح توفيق سكر ووليد غلمية بالغاء ربع الصوت في المقامات العربية، وفق ما يقول مطلع على تلك المرحلة.

نقاش بات قديما اليوم. الا انه يعكس ذلك الشغف وتلك الحيوية التي كانت سائدة



المبايسترو والمؤلف الموسيقي توفيق سكر آخر "عصبة الخمسة" مع عاصي ومنصور الرحباني وزكي ناصيف وتوفيق الباشا.

كل اسم من عصبة الخمسة اللبنانية حفر مكانته بطريقة متفردة وفريدة في تاريخ الفن اللبناني، وتوفيق سكر منهم بلا شك. لم يمنعه ضعف نظره من ملاحظة شغفه بالموسيقى ودراستها منذ صغره، ساعده في ذلك مناخ عائلي واع لموهبته ومحتضن ومنم لها بكل ما هو متاح.

يمكن اختصار انجازات توفيق سكر

في المشهد الثقافي في بيروت ذلك الزمن المحمل بالتطلعات والاحلام. لا ننسى انه كان شغوبا بتراث بلده الفني، هو الذي جمع الفولكلور اللبناني والالحن السريانية والمارونية ووضعا في اربعة اصوات، مع انها مبنية على سلام شرقية من ربع الصوت.

تنوعت اعمال توفيق سكر الموسيقية، لتراوح من الاعمال السمفونية، وسمفونية الارز، وموسيقى الحجرة، الى موسيقى الافلام (وضع موسيقى فيلم المعلم اللبناني جورج نصر "الى اين؟")، وموسيقى خاصة للبيانو، مُصدرا اكثر من اربع اسطوانات في حياته.

التقت "الامن العام" ريتا عيد، مديرة "مدرسة موزار شاهين للموسيقى" التي تتلمذت على يد توفيق سكر، وكانت ايضا استاذة في "المعهد الوطني العالي للموسيقى، الكونسرفتوار" للتحدث عن الراحل ومشواره الموسيقي الغني والمتشعب.

■ هلا اعطينا نبذة عن سيرة توفيق سكر والظروف التي نشأ فيها؟

□ توفيق سكر موسيقي ومؤلف ومرب ولد في طرابلس في 29 تشرين الثاني 1922 وعاش في بشري في كنف عائلة متواضعة، لكنها كانت واعية جيدا لقدراته وموهبته الموسيقية. هكذا، بدأ يتعلم العزف على البيانو منذ سن الاربع سنوات. عندما بلغ الـ14 من عمره، انتقلت عائلته الى بيروت كي يتاح له التلمذ على يد المعلمين الكبار امثال تيبو بلوخ Thibaut-Bloch للبيانو، وارنست كاسيل للكمان، وبيتران روبيار للمواد النظرية، و"الفوغ" Fugue والـ "كونتروبووان" contrepoin، فيما اكمل دراسته في مدرسة الاباء اليسوعيين. في تلك الحقبة، كما نعرف، كانت هناك دولة لبنان الكبير ووجود فرنسي ومناخ الفرنكوفونية الذي كان سائدا، وهذا ما يفسر وجود الاساتذة والموسيقيين الاجانب والفرنسيين الذين تتلمذ على يدهم. اكب توفيق سكر كل هذه

نقطة على السطر

عظماؤنا المنسيون

في كل بلد، في كل مجتمع، داخل كل ثقافة، هناك ربما شخصيات مهمة في مجالات الفكر والعلم والابداع، مغيبة او منسية او مهمشة. لكن هناك فرقا بين ان يكون هذا الاهمال، او هذا النسيان استثناء يأتي في وقت من الاوقات من يكتشفه، فيعمل على اصلاحه، وبين ان يصبح النسيان القاعدة. ويا لالاسف في لبنان، كل الخشية من ان نُصنّف ضمن الفئة الثانية.

في كل بلد وكل عصر، هناك شخصيات كبرى لعبت ادوارا حيوية في صوغ هويتنا او وعينا او فكرنا وتراثنا الحضاري، لكنها عاشت في الظل، بعيدا من الاضواء، من الساحة العامة، من فضاء «الشهرة» الاعتيادي والمشهور. لم تحصل على المجد الذي تستحقه، والاعتراف والتكريس الشعبين اللذين تستحقهما على مستوى الامة. بينما نرى الظواهر الاستهلاكية، السطحية التي تتقن فن التسويق والدعاية، او فن الغواية السهلة، تغزو الوجدان العام وتحتكر الاضواء، وتستحوذ على الوعي الشعبي والثقافة السائدة امام تقصير المؤسسات واستقالة النخب...

لا شك في ان الموسيقي الراحل توفيق سكر احد هؤلاء العظماء المنسيين في لبنان. هذا المؤلف الموسيقي العالمي بكل المعايير، الذي يمكن ان نضعه في مصاف الموسيقيين الكبار في العالم، عاش في الظل، انتج وابدع ونظر ورَبّي بعيدا من الاضواء كما يليق بالعلماء والمبدعين والمفكرين الكبار الذين يرفضون التحول الى ظواهر استهلاكية، او الى اصنام الموضة العابرة التي سرعان ما يتم تحطيمها واختراع غيرها كي تواصل الماكينة العملاقة دوراتها.

عاش توفيق سكر مجهولا من الجمهور الواسع، ومن كثير من المؤسسات الثقافية. وحدهم دعاء الثقافة الجديدة، والاكاديميون وطلاب الموسيقى ومحترفوها وباحثوها، كانوا يعرفونه ويبحلونه. رغم ما قدمه الى الموسيقى اللبنانية، ورغم اضافاته الى الموسيقى العالمية، ورغم موهبته الفذة وسعة مداركه واحاطته بالفن الكلاسيكي والفن الشعبي، ورغم مؤلفاته القيمة... ورغم دوره في اعداد اجيال من الموسيقيين الذين نعرفهم جيدا ونتاجهم ونصفيق لهم، نكاد لا نقع في الصحافة المكتوبة الا على قصاصات نادرة وخجولة ومقتضبة عنه وعن حياته واعماله!

كما عاش توفيق سكر، كذلك رحل بصمت. فلم نشاهد تقريرا تلفزيونيا عنه، ولم نقرأ مقالة، ولم يكن في جنازته ممثلو الجمهورية التي تكبر بامثاله، ولا حتى ممثلو القطاعات الثقافية والاكاديمية من زملائه وطلبته وقرانه.

لم يكن «نجما» بالمعنى الاستهلاكي كي تهتم به الجمهورية. هذا المبدع والعالم الذي اشتغل على البوليفونيا كما اشتغل على الفولكلور الشعبي والتراث الديني، والذي كان مسكونا بهاجس اصال الموسيقى الى جميع فئات الشعب وطبقاته. الموسيقى الكلاسيكية ليست صعبة بالضرورة ولا نخبوية، إذا عرفنا اصالها الى الناس. وتوفيق سكر كان يحمل فرقته ويجول في المناطق، ويقدم الامسيات والحفلات الموسيقية الراقية لكل الناس بالمجان! فماذا قدمنا ونقدم له اليوم بعد غيابه، في لبنان؟

هل نتركه يغرق في غياهب النسيان؟ هل نريد حقا ان نكون شعبا بلا ذاكرة ولا هوية وبالتالي بلا مستقبل؟

لا نخترع شيئا جديدا ان قلنا ان اعادة الاعتبار الى عظماؤنا المنسيين مسؤولية وطنية كبرى. مسؤولية تقع على عاتق الافراد، كما تقع على عاتق المؤسسات... وتقع على عاتق المبادرات الاهلية بقدر ما تقع على الدولة. انها مهمتنا جميعا، باحثين وكتّابا ومؤرخين واعلاميين وناشطين في الجمعيات الاهلية والثقافية، وايضا مسؤولين وسياسيين ووزراء وممثلين للشعب والامة. هل كثير على توفيق سكر اليوم ان يُطلق اسمه على شارع في لبنان؟ ان يدخل الى المناهج التربوية؟ ان تكتب سيرته، وتجمع اعماله وتنشر على نطاق واسع فتصل الى كل لبناني ايا كانت درجة علمه، ما دام معنا بالجمال والحضارة؟

لا يحق لنا ترك عظماؤنا وحدهم في الثقب الاسود الذي هو العدم، والا فتحن ن خاطر بأن يغرق الوطن كله في مستنقع العقم والموت والنسيان.

سمير مراد



مديرة "مدرسة موزار شاهين للموسيقى" ريتا عيد.

حبيبي". وتميزت اعماله وتأليفاته بنفحة شرقية وحبه لوطنه وتراثه الموسيقي حيث لقب توفيق سكر بـ "البارتوك اللبناني" (في اشارة الى الهنغاري بيلا بارتوك، احد اهم موسيقيي القرن العشرين).

■ ماذا عن مكانة التراث الموسيقي اللبناني في مسيرة توفيق سكر؟

□ كانت للتراث اللبناني مكانة خاصة عند توفيق سكر، لان كل دراساته الغربية وابداعه في الدراسات الموسيقية الغربية المعقدة وُضعت في خدمة تطوير الموسيقى والتراث اللبناني من اعادة كتابة ووضع النظام البوليفوني (المتعدد الاصوات) للمقامات الشرقية والالحن التراثية الفولكلورية، وقدم الموسيقى الدينية والالحن المارونية من خلال كورال توفيق سكر، الى جانب الحفلات الموسيقية المجانية الكثيرة التي كان يقيمها في مناطق مختلفة في لبنان، من الشمال الى بيروت، وكان شخصيا يهرن الفرق ويديرها.

س. م

مميزات اعماله وتأليفاته نفحة شرقية وحبه لوطنه وتراثه الموسيقي

قدم الموسيقى الدينية والالحن المارونية من خلال كورال حمل اسمه

تحت عنوان "متتالية فولكلورية لبنانية" كتبها خصيصا لزوجته نينا بختنصر لتؤديها على آلة القانون، حين كانت زوجته تدرس ايضا احتمالات تطوير هذه الالة. كما اصدر اكثر من اربع اسطوانات، الى جانب كتب الصولفيج والاعمال التعليمية التي يدرسها التلاميذ في سنتهم الاولى في الكونسرفتوار حتى اليوم، ومقطوعات كثيرة من التراث الموسيقي اللبناني مثل "محلا العيشة بضيعتنا"، "هالله يا جملو"، "رمانك يا

الموسيقى والكونتربوان وتطويرها. كما ابتكر مادة نظريات الموسيقى الشرقية لطلاب القسم الغربي، لانه في ذلك الوقت، كان هؤلاء يدرسون فقط الموسيقى الغربية. وهو كان يعتبر انه يجب على كل لبناني ان يتعرف الى تراث بلده الموسيقي. خلال السنوات التي شغل فيها منصب مدير المعهد، كانت النهضة الموسيقية مستمرة في كل هذه المواد والعلوم التي اشتغل عليها عندما كان استادا. وكان يسعى دوما الى تقديم منح الى فرنسا للطلاب المتفوقين في المعهد.

■ اسس الراحل مدرسة الموسيقى في بلدته بشري، ومدرسة الموسيقى التابعة لجامعة سيدة اللويزة وغيرهما، هلا اعطينا تفاصيل عن توفيق سكر المؤسس وواضع مداميك المدارس الموسيقية في لبنان ومساهمته في نشر ثقافة الموسيقى في المجتمع؟

□ في عام 1971 اسس توفيق سكر "معهد جبران خليل جبران" في بلدته في بشري، كما اسس مدرسة الموسيقى في جامعة اللويزة، الى جانب "كورال توفيق سكر". كان يزرع في كل تلميذ علمه وانا منهم، مدرسة توفيق سكر، ليس فقط في المعطيات الموسيقية التي كان يزرعها في المجتمع اللبناني من خلال تلامذته، والمعاهد والامسيات التي كان يقدمها مع فرقته بشكل مجاني، بل في المقطوعات والكتب القيمة التي تركها، وتطوير الموسيقى الشرقية، والتواضع الذي ميز شخصيته. وامل في ان يستطيع المجتمع ولبنان ان يوفوه بعضا من حقه. كان في منتهى التواضع وصاحب نكتة لا تفارقه حتى خلال مرضه.

■ اخبرينا عن نتاجه التألفي الذي امتد من السمفونيات الى موسيقى الافلام؟

□ لناحية التأليف، على مدى 95 سنة من حياته، انتج الكثير من السمفونيات اهمها سمفونية الارز واعمال لموسيقى الحجرة ومقطوعات للكورال ومقطوعات للبيانو الى جانب مقطوعات بوليفونية

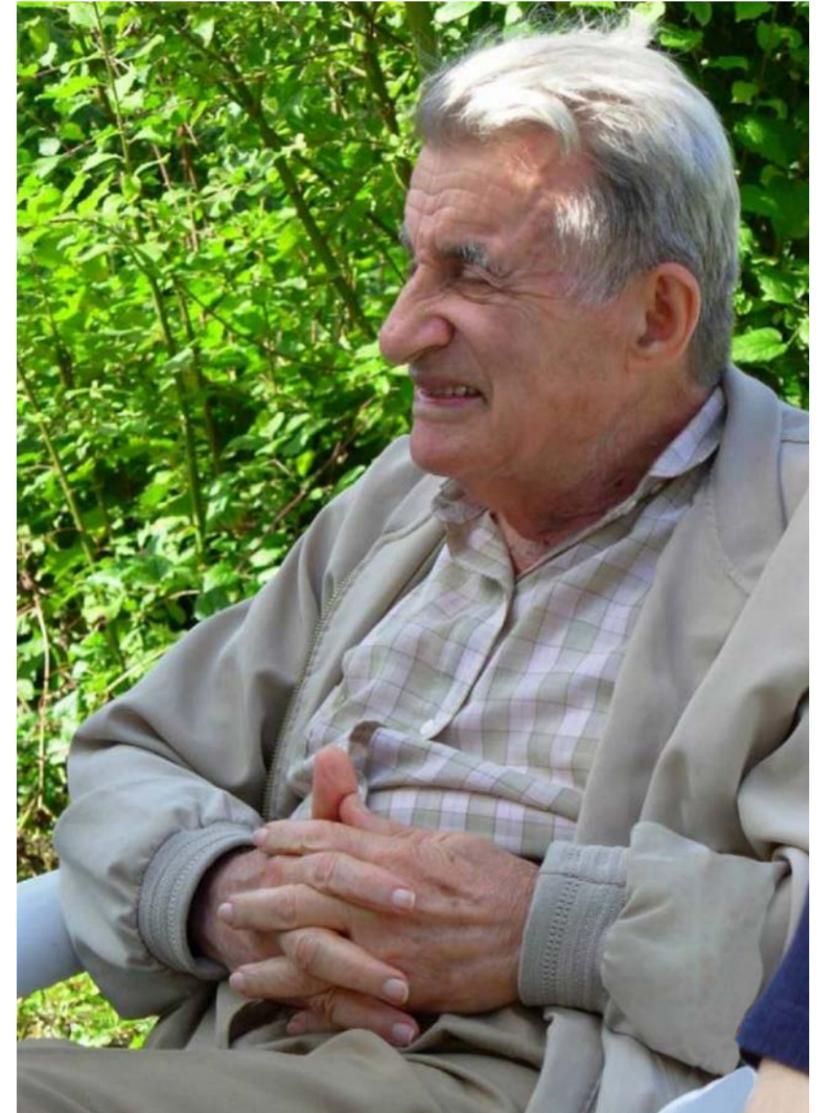
يعني ان توفيق سكر استطاع ان يضع نظاما تناغميا ومتعدد الاصوات للمقامات العربية التي تكون عادة مبنية على ربع الصوت.

■ لكن عمله ادى الى جدل كبير بين المؤرخين والموسيقيين في بيروت السبعينات؟

□ طبعا، شهدت بيروت الكثير من النقاشات حول ربع الصوت في الموسيقى الشرقية، خصوصا حين وضع توفيق سكر نظاما بوليفونيا للاعمال المبنية على ربع الصوت، الى جانب الدراسات التي اشتغل عليها في هذا المجال. لكن النقاشات لم تقتصر على لبنان، بل امتدت الى بعض الدول العربية والغربية. في عام 1954، قدم محاضرات حول هذا الموضوع في "الندوة اللبنانية"، مع مؤلفات له تركز الى الفولكلور اللبناني. هذه المحاضرات امتدت الى فرنسا، وبغداد، وتونس والقاهرة، وروما، واعيدت في المركز الثقافي الفرنسي في بيروت عام 1999، نظرا الى اهميتها بالنسبة الى الموسيقى الشرقية وما اضافته اليها من غنى وتطور.

■ عين استادا في المعهد الوطني للموسيقى في بيروت عام 1953 ثم مديرا له من عام 1964 حتى عام 1969، هلا اخبرتنا عن التغييرات التي احدثها في المعهد وخصوصيته كاستاذ ومرب؟

□ بعد نجاحه في المسابقة، التحق توفيق سكر عام 1949 بالمعهد العالي للموسيقى في باريس، ليكون اول لبناني يلتحق بهذا الكونسرفتوار. هناك، درس على يد عمالقة امثال هنري شالان، واوليفيه ميسان، وتوني اوبان في مجال التأليف، وعلم التناسق والتناغم الموسيقي، والكونتربوان والفوغ. في عام 1953، عاد الى لبنان ليعين استادا للكونسرفتوار الوطني في بيروت، حين كان انيس فليحان مديره. كان توفيق سكر مسؤولا عن اعادة برمجة مواد الصولفيج، والمواد النظرية، والتناغم



اول لبناني يدخل الكونسرفتوار الوطني في باريس عام 1949.

كان فريدا بعطائه اليومي، ولا يتعب من التعليم، بل يعطي من وقته كل ما يلزم للتلامذة. لكن اهم ثورة خلقها في عصره، كان في مجال الموسيقى الشرقية العربية مع وضعه النظام البوليفوني (المتعدد الاصوات) للمقامات الشرقية التي تحوي ربع الصوت، ما منح الموسيقى الشرقية غنى وتطورا لم تبلغهما قبله، لا بل ان المحاولات التي جرت قبله كانت ضعيفة جدا في هذا المجال. النظام البوليفوني

الاحداث، ثم الحرب العالمية الثانية والاستقلال. كما انه عاش في فرنسا اربع سنوات للتعلم في الكونسرفتوار هناك من عام 1949 حتى عام 1953.

■ ما هي "الثورة" التي احدثها في الموسيقى؟

□ وجوده في عصره كموسيقي ومؤلف للكثير من الاعمال، الى جانب تربيته لاجيال من الموسيقيين كان ثورة في ذاتها.